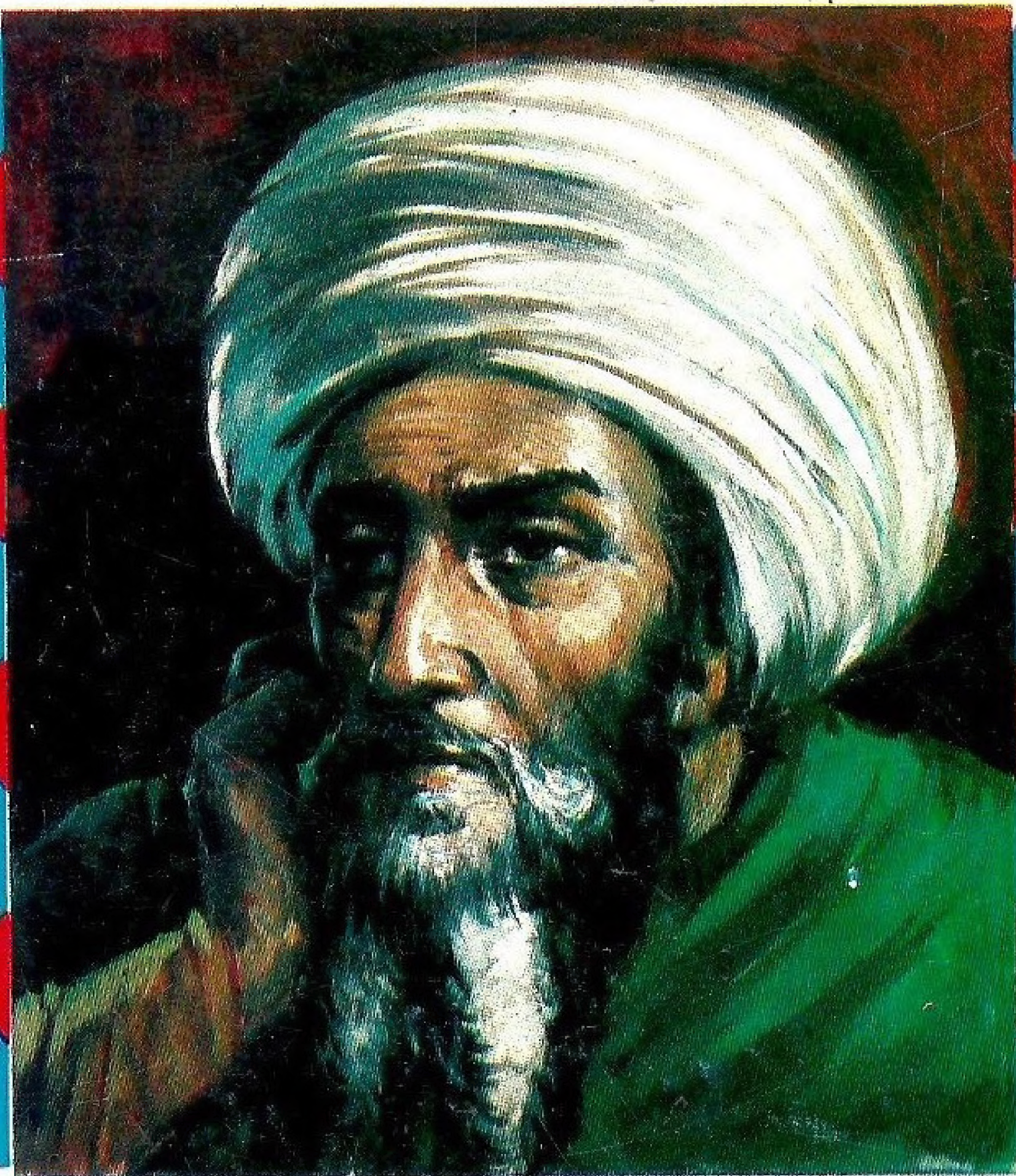


علماء
العرب



ابن رشد

آخر الفلاسفة



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

مركز الأهرام
للترجمة والنشر

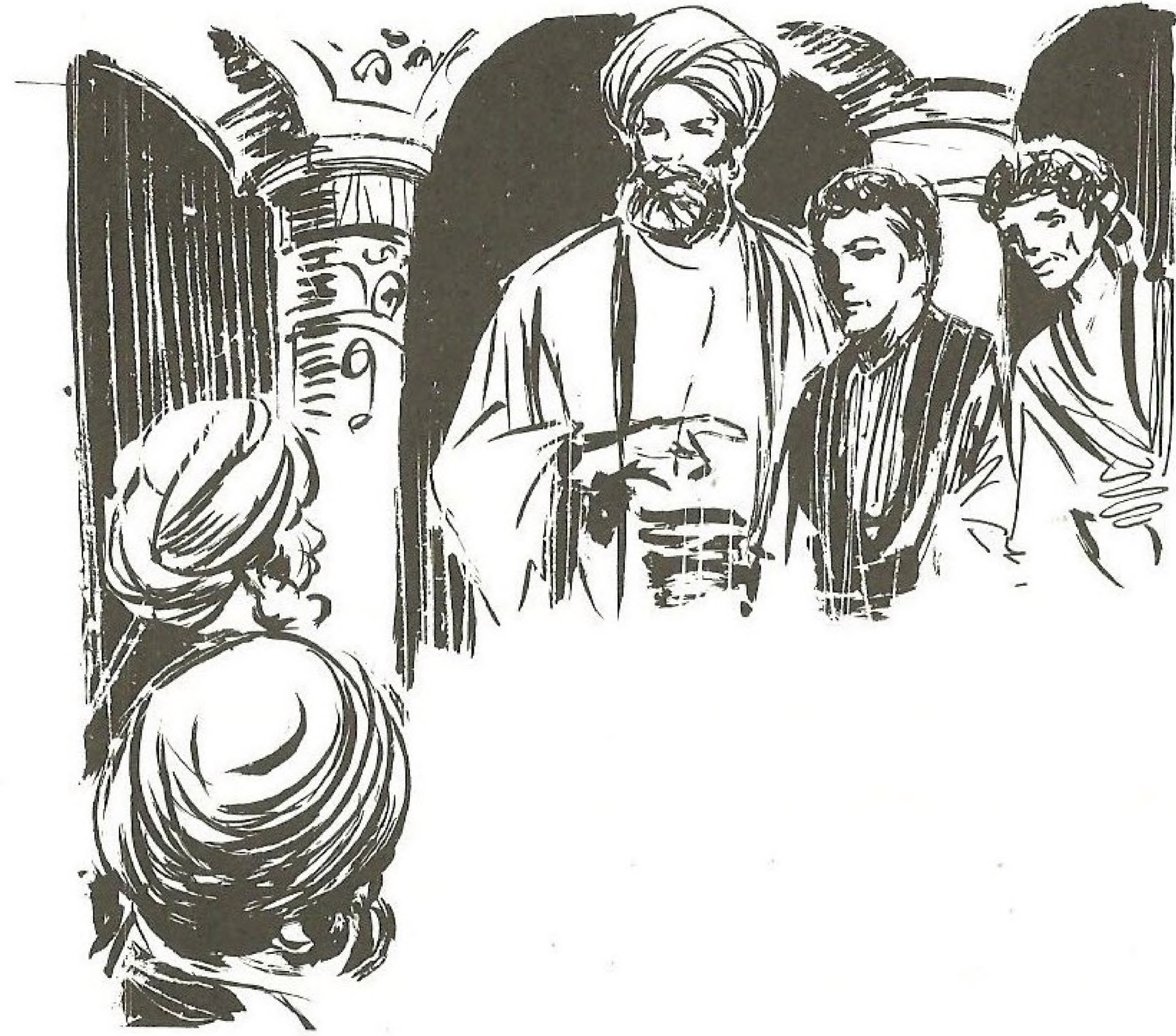
علماء
العرب
(١٢)

ابن رشد

آخر الفلاسفة



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب



الصديقان

كانت قد مرّت ثلاثُ سنوات ، حينَ قدّم قاضيُ القضاةِ
« أبو القاسم أحمد » ولده : « أبا الوليد محمد » إلى أصحابه ،
ومعه صديقُه الفتى « ابن زُهر » . كانوا جالسين في قاعةِ
الأضيافِ الكبرى ، المثمّنة الأضلاع ، المُحاطة بالعُقود ،
والزخارف المورّقة .

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

وقال لهم أبو القاسم مُشير إلى ولده ، وصديقه :

— هذان قد عَرَفَا علومَ الدين على يَدَيَّ . حفظا القرآن الكريم ، وأحاديثَ « الموطأ » للإمام مالك ، ودرسَا التفسير ، والحديث والفقه ، وهما يرغبان في درس علم الكلام على مذهب أهل السنة من الأشاعرة ، وحضور مجالسكم ، وسماع محاوراتكم .

ورحب الأصدقاء بالفتيين ، وكانا في عُمرين مُتقاربين . ومنذ ذلك الحين ، وقد بلغ « أبو الوليد » من العمر خمس عشرة سنة ، انقطع الصديقان إلى هؤلاءِ الصحب ، وكلَّهم أساتذة كبار في قرطبة ، يجلسان إليهم حيثما كانوا ، أو كان أحدهم ، في حلقاتِ الدرس بمسجد قرطبة الجامع الكبير ، وفي مجالس الفكر كلما انعقدت في دارٍ أو قصر . وكان الجدُل يدورُ في علم الكلام ، حول مذهبٍ من مذاهب أهل السنة ، هو مذهبُ الأشاعرة .

وسرعان ماتكشفت الميول الحقيقية لكل من الصديقين . تاق أبو الوليد ، وابن زهر ، لدراسة الفلسفة والطب . فقصرا لقاءتهما على اثنين ، هما : « ابن طفيل » الفيلسوف ، و« أبو جعفر هارون » الطبيب ، وكانت دراسة هذين

العلمين معاً في هذا الزمان أمراً محتوماً ، في المشرق العربي ، والمغرب العربي . وفي طلبهما كان يفدُ من أرجاء أوربا ، على الأندلس ، علماء وقساوسة ، ويستقر بهم المقام في قرطبة بضع سنين .

خير بلاد الأرض

كانت قرطبة أكثر مدُن أوربا سُكّانا ، وأغناها مالا ، وأعلاها ثقافةً ، في القرن الميلاي الثاني عشر . وكانت مدينةً مترامية الأطراف ، تحيطُ بها ضواح جميلة ، وأراضٍ خصبة ، ويشقّها نهر الوادي الكبير ، تعلوه قنطرة شهيرة ، وتتناثر في أرجائها حدائق غناء ، وقصور فخمة ، تُرى فيها تماثيل الحيوانات والطيور ، وتلتصع بها ، في ضياء الشمس ، مياه النوافير النجمية المثمّنة ، ومبانٍ دينية رائعة ، يتجلى فيها امتزاج الطرز المعمارية : العربية ، واليونانية ، والرومانية ، والقوطية في اتساق .

وكانت قرطبة ماتزال عاصمةً للأندلس سياسةً وحضارةً ، واقتصاداً وثقافةً ، في العصر الأموي ، ثم انهارت قرطبة في عهد

ملوك الطوائف قرابة مائة عام ، لكن دولة المرابطين المغربية ، أعادت إلى الأندلس وحدتها ، وإلى قرطبة مجدها ، فصارت العاصمة الثانية لدولة المرابطين ، بعد عاصمتهم الأولى في مراكش . وارتفعت من جديد هيبة قرطبة ، وسطوتها ، وبأسها ، في مواجهة إمارات الفرنجة ، المتربصة بالحكم العربي وبالمسلمين في الأندلس ، تنتظر فرص الضعف ، وتتنهزها بالغارات ، والمذابح ، والحروب .

وفي قرطبة ، كانت تتعايش ثلاث ديانات كبرى ، جنباً إلى جنب ، في تسامح ديني سائد بين الرعايا ، لا يكاد يُخرق ويمزق إلا في أوقات المحن والشدائد ، حين ينزل بعض المستعربين من المسيحيين واليهود لتأييد غزاة الفرنجة . وكانت تتفاعل ثلاث ثقافات : ثقافة اليونان والرومان ، وثقافة العرب المسلمين ، وثقافة العبرانيين ، لكن هذه الثقافة العبرانية كانت حبيسة المعابد اليهودية ، لا يشارك أخبارها أحد في معرفتها ، سوى الملوك والنبل والعظماء ، والعلماء والأدباء والفنانين ، والمترجمين من العربية إلى العبرية واللاتينية ، ومن اليونانية والعبرية إلى العربية .

وتشربت روح أبو الوليد ثمار هذا التعايش ، والتفاعل ،

والتسامح ، في الأسواق والمجالس ، والمكتبات والمؤلفات ، فاكسب احتراماً للعقل ، وغنى في المعرفة ، ورحابة صدر في تفهم اختلاف الآراء ، وتعارض وجهات النظر والأفكار ، وأحب قرطبة .

قال أبو الوليد لأبيه يوماً ، معبراً عن حبه لقرطبة :
— قرطبة خير بلاد الأرض ، وأهلها أذكى الناس . أحب فيها مايسر ، ومايغضب . ولا أرجو أن أعيش في مدينة سواها ، أو أموت بعيداً عنها ، أو أدفن في غير ثراها .

على صهوة جواد

بلغ أبو الوليد من العمر عشرين سنة ، وتقدم لنيل الإجازات العلمية من أساتذته في علوم التفسير ، والحديث ، والفقه ، والكلام ، والمنطق ، والفلسفة ، والطب ، فناها جميعاً في حشد حافل ، من العلماء والطلاب ، والقضاة والفقهاء ، وعُشاق العلم ، في المسجد الجامع الكبير بقرطبة .

وعادَ إلى البيتِ عالمًا صغيرًا ، ذا لِحْيَةٍ خفيفة ، على
صِهْوَةٍ جَوَادٍ ، برفقةِ أبيه . وأقيمتْ وليمةٌ حافلةٌ للعلماءِ
والطلابِ في بستانِ القصر ، ومُدت الموائدُ للفقراءِ خارجَ
القصر ، تغطّيها المفارشُ البيضاء ، والملاعقُ والشوكُ
والسكاكين ، التي ابتدعها فيما مضى الموسيقارُ زُرْيَاب .

وحين انفضَّ السّامر ، وخلا أبو القاسم بولده ، في قاعةِ
الأضياف ، قال له :

— أيّ عملٍ تحبّ أن تلى أموره في قرطبة ؟

فقال أبو الوليد :

— لا أرضى لنفسي بغيرِ القضاءِ عملاً ، ووسيلةً للعيش ،
لأكونَ مثلَ جدّي ، ومثلك يا أبي ، لكنّ سنّي مايزالُ غضًّا ،
والقاضي ينبغي أن تكونَ له من العُمُرِ هيبةٌ أمامَ الناسِ ،
ومازلتُ أحبُّ طلبَ العلم ، والمزيدَ من معارفِ الطبِّ
والفلسفة ، والفلكِ والحيوانِ ، فقد صِرت لها محبًّا ، بل
عاشقًا ، فأُمهِّلْنِي بضعَ سنين .

وأعجبتْ أبو القاسم رجاحةَ عقلِ ولده ، وعدمَ تعجُّلهِ



في طلب المناصب ، وطريقته المنطقية المنظمة الهادئة في التفكير ، فعانقه قائلاً :

— الآن ستقر بك عين جدك في ثراه . لقد ودّع جدك الدنيا في العام الذي ولدت أنت فيه ، فغمرنى الحزن عليه ، ولم يعوّضني عنه سوى أنك ولدت إثر وفاته بشهور ، وسوى أن سلطان المرابطين « ابن تاشفين » ، رفعني من قاضي مدينة ، لأكون قاضي الجماعة (قاضي القضاة) ، في مكان جدك . فاصنع يابني ماثب . وإني لأرجو أن تكون أفضل إخوتك عقلاً وعِلماً . لكن دعني أفرح بك أنا وأمك . وتزوج بفتاة تُحبّها ، فتاة نالت من التعليم مانالته إخوتك من البنات ، فلا تكون غريبة بين نساء البيت ، ولا تشعر أنت معها بغربة العقل والروح ، وتجد لديها خير صديق في الحياة ، وخير تفهم لانشغالك عنها بالعلم ، وتغرس في أولادكما حب العلم ، مثلها ومثلك .

الأيام دول

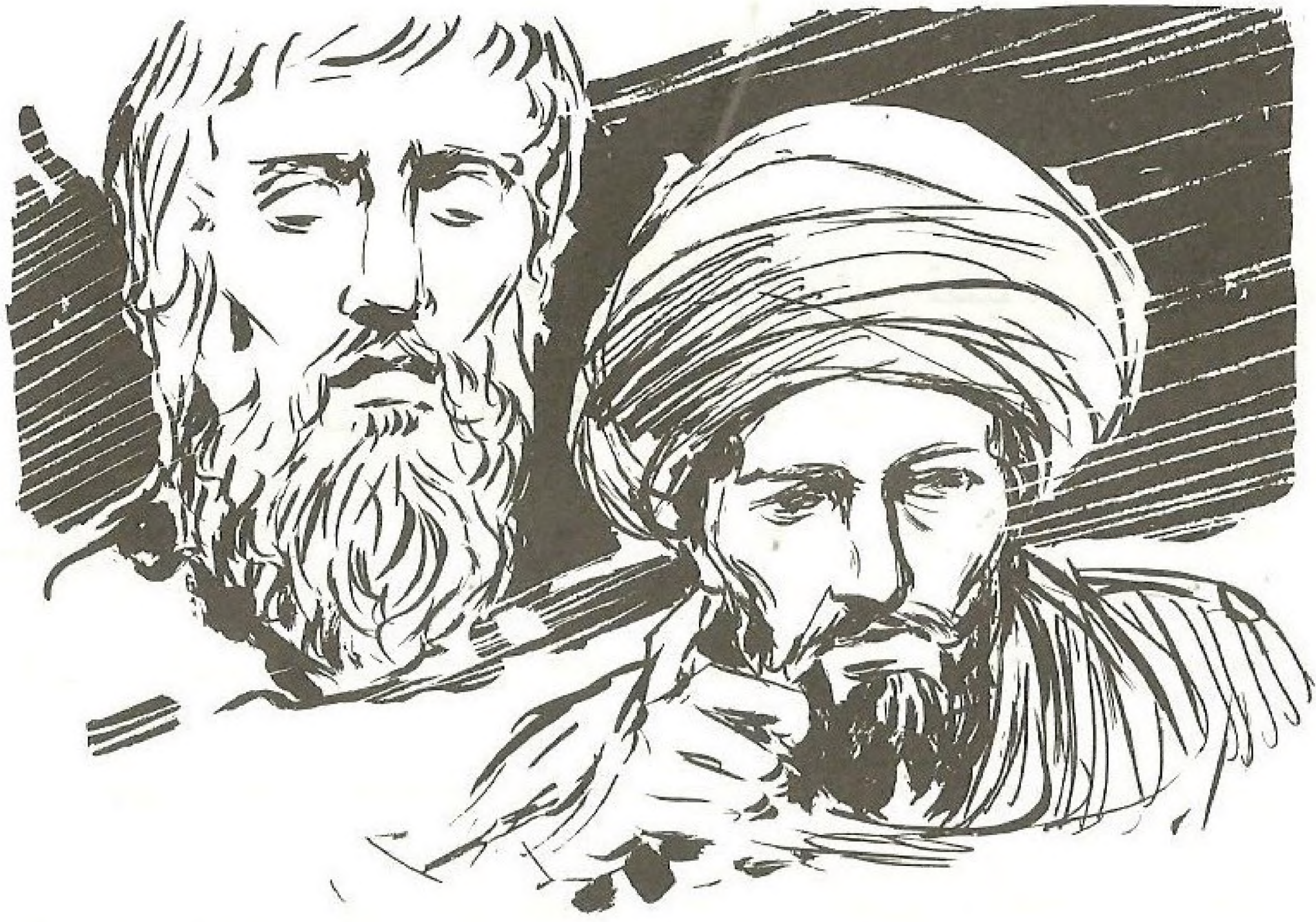
في ذلك العام نفسه ، سقط حكم المرابطين في المغرب ، على أيدي رجال دولة مغربية جديدة ، هي دولة الموحدين ، فللدول شيخوختها مثلما للأفراد ، وانتقلت تبعية الأندلس للدولة الجديدة ، وكانت ، وهي المهتدة أبداً بغزو الفرنجة ، بحاجة إلى دماء دولة فتية وليدة . وكان مؤسس هذه الدولة تلميذاً للإمام الغزالي المتصوّف ، ومدافعاً عن مذهب الأشاعرة بين مذاهب أهل السنة .

ولم يؤثر هذا التغير في حياة أحد من بني رشد . ظل أبو القاسم في مكانه قاضياً للجماعة ، وظل ابنه أبو الوليد يواصل طلبه للعلم ، وللطب ، في كتب ابن ماجه ، وابن جبيرول الفلسفية ، وكتب الزهراوي الطبيب الجراح ، و« الحاوي » للرازي ، في الطب ، ويعالج الفقراء بلا أجر ، وصار له تلاميذ ، يدرسون على يديه الفلسفة والطب .

دعوة للقاء السلطان

وتولّى منصب السلطان « أبو يعقوب يوسف » . واختار له وزيراً فيلسوفاً ، وطبيباً خاصاً : « ابن طفيل » أستاذ أبا الوليد . وزار ابن طفيل صديقه أبا القاسم في قرطبة ، فأهدى لتلميذه أبي الوليد نسخة من قصّته الفلسفية « حيّ بن يقظان » . وسعد أبو الوليد بقراءة القصّة ، وناقش ابن طفيل في مغزاها الفلسفيّ ، الذي يرى فيه ابن طفيل ، أنّ الإنسان يمكن أن يهتدى إلى خالق للكون ، لو قدر له أن يعيش وحيداً عن بني جنسه ، ولو لم يبلغه أى خبر عن الوحي والرسول .

وأعجب ابن طفيل ، بمعارف أبي الوليد الواسعة بآراء الفلاسفة الإغريق ، وفلاسفة الإسلام المشرقيين ، وبنقده الجيد لأولئك وهؤلاء ، وأغراه بالسفر معه إلى مراكش ليقدمه إلى السلطان أبي يعقوب ، ويقدم له المشورة في إنشاء عدد من المدارس الجديدة والحديثة ، بالمغرب والأندلس ، على أسس جديدة ، لإصلاح نظم التعليم .



وكان أبو القاسم قد قام بتقديم مشورة مماثلة لإصلاح التعليم في عهد دولة المرابطين ، فسّر أبو الوليد بدعوته للقيام بدور مماثل لدور أبيه ، في دولة الموحدين ، وقبل رحيله عن قرطبة إلى مراكش ، كان قد حمل معه آراء كثيرة جديدة لإصلاح التعليم ، ونظم التعليم وطرائقه ، وفي مقدمتها آراء أبيه .

تعليم المرأة

كان قصر السلطان في مراکش مثل قصور الأندلس ،
فالعِمارة هنا وهناك واحدة ، تميزها أبداً القاعات والنوافير
المثمّنة الأضلاع ، والعقود والمقرنصات الزخرفية المورقة .
وكان الوقت صيفاً حين جلس أبو الوليد في مجلس السلطان
مع صفوة من علماء وأدباء وشعراء المغرب والأندلس ،
وأنست نفسه لهذا السلطان المحب للعلم وأهله ، وحدث
نفسه بأنه هكذا ينبغي أن يكون الحاكم عالماً ، يجمع حوله
العلماء ، ويتخذ منهم الوزراء والمشيرين .

وتحدث أبو الوليد ، مع من تحدث من الحاضرين ، في
قضية إصلاح التعليم . وراقت للسلطان وجهة نظر ابن
رشد ، وتركيزه ، وحسن فهمه وعرضه ، وقدرته على إقامة
الجسور بين الآراء المتعارضة ، ورفع التناقض بين الأفكار
المتباينة ، فقال له :

— مارأيك في تعليم المرأة ياأبا الوليد ؟ وهل إذا تعلّمت

المرأة ، ونالت قدراً كافياً من التعليم ، تكون صالحة لتولّي
المناصب ؟

فقال ابن رشد ، وهو يدقق في اختيار كلماته ، قدر
المستطاع :

— لفيلسوف اليونان « أفلاطون » رأى في هذا الموضوع
في كتابه « الجمهورية » .

فقال له السلطان باسماء ، وقد أدرك خرج موقف أبي
الوليد ، في إبداء رأيه الخاص :

— نريد رأيك أنت ياأبا الوليد ، لا رأى أفلاطون .

فقال ابن رشد :

— رأيي أن النساء ماؤمن من أفراد الجنس البشري ، فهن
يشتركن بالضرورة في تحقيق غاية الإنسان ، وهي تعمير
الأرض ، والارتقاء بالحياة البشرية . ولن تختلف النساء عن
الرجال في تحقيق هذه الغاية ، إلا من حيث الدرجة الأكثر
أو الأقل ، مثلما تختلف بين الرجال . وإذا توجّهت الطبيعة

في المرأة ، إلى نشاط الرجل ، في المدينة الواحدة ، فسوف
تمارس نفس النشاط الذي يمارسه الرجل .

حدثت هممة في المجلس . فسارع ابن رشد بتوضيح
وجهة نظره . قال :

— إن بعض النساء يتلقين تعليماً ممتازاً ، ويتمتعن باستعداد
حميد ، فليس من المحال أن يكون من بينهن فلاسفة ، مثلما
حدث في الاسكندرية واليونان ، وفقهات مثلما حدث في
دول للإسلام ، وحكام وقضاة مثلما يحدث بين الرجال ،
في أي مدينة . لكن كفاءة النساء في مدن الأرض غير معروفة
إلى الآن ، ولم يكتشفها ويستثمرها أحد لصالح المجتمع .

فهن يوضعن في خدمة أزواجهن ، ولغاية النسل ، ويوقفن
في البيوت على إنجاب الأطفال ، وتربيتهم ، وإرضاعهم . وفي
رأبي أن النساء لم يُعددن حتى الآن لأي من الفضائل
الإنسانية التي نحرص على أن نُعد لها الرجال . ولذلك فالنساء
كثيراً ما يُشبهن في حياتهن النباتات ، حتى صرن عبئاً على
الرجال ، وأحد أسباب الفقر في مدن الأرض ، لأنهن قُدرت

عمل معطلة ، خاصة وأن عددهن ، في بعض المدن المحاربة ،
ضعف عدد الرجال ، ولا يفهمن بحكم تربيتهن من الأعمال
اللازمة في المدن ، سوى فن الغزل والنسج . وهن لا يقمن
بهما ، في معظم الأحوال ، إلا لتعويض حاجتهن للمال ،
وقلة قدرتهن على الإنفاق .

وساد الصمت والوجوم في المجلس ، لجراحة أبي الوليد في
الحديث عن حال المرأة في الدنيا ، وتسويته لها بالرجال ، مع
أن أكثر الحاضرين ، كان حريصاً على تعليم بناته ، ولو في
البيوت ، وحريصاً على تأمينهن اقتصادياً ، ويتمنى أن تكون
بناته قادرات على العمل مثل الرجال في مدائن الإسلام ،
ولكنه يخشى ماحوله من الأعراف العامة ، في عالم يسود
فيه الرجال . وأدرك السلطان حرج الموقف ، وخشى تطور
الجدل بين الحاضرين ، وبينهم فقهاء غزاليون وأشاعرة ،
فقال :

— آراء ومنى يابا الوليد . والإسلام لا يحول بين المرأة
وماتقوله . فدعنا لانسبق زماننا ، ولنأمل أن تتطور المجتمعات
وتتغير أحوال الناس .

السلطان والعالم

انفضّ المجلس ، وَحَلَا السلطان بابن طفيل ، وأبى الوليد ،
فصحبهما معه إلى مكتبته العامرة بالكتب في كل فنّ وعلم ،
من علوم الدنيا والدين ، فقد أخذتْ تهبُّ على الحديقة ، مع
انتصاف الليل ، نسّماثٌ باردة .

ورمق السلطانُ أبا الوليد ، وقال له متودّدا :

— قرأتُ موسوعتي جدّك الرائعتين في الفقه ، وأرجو أن
تكونَ مثله يوماً ، قاضيا للجماعة ، بعد عمرٍ طويلٍ لأبيك .
وحدّث ابنُ طفيل السلطانَ عن العلوم التي درّسها أبو
الوليد في قُرطبة ، وتبحّر فيها ، وأن بين هذه العلوم علمين
يُحبّهما ، مثلما يُحبّهما السلطان ، هما : الفلسفة والطب .
وومضت عينا السلطانِ بإعجاب ، وقال لأبى الوليد :

— خبرني إذن عن رأي الفلاسفة في الموجودات : أقديمة
هي أم حادثة ؟ وفزع أبو الوليد ، وخشى أن يُبدى آراء
الفلاسفة ، أو آراءه في هذه القضية العقلية التجريدية



الشائكة ، التي ينقسم فيها الفلاسفة قسمين ، وفي حضرة
سلطان موحدى ، مالكي المذهب ، أشعريّ الجدل ، فأخذ
يتهرّب من الاجابة ، بإظهار قلة العلم والمعرفة بهذه المسألة .
لكنه فوجيء بالسّطان يضحك من حاله وخوفه ، وأخذ
السّطان يُجيب على السّؤال بنفسه ، ويذكر آراء فلاسفة
الإغريق ، والمسلمين ، واحداً واحداً ، واحتجاج فلاسفة
المسلمين وبراهينهم . فقال أبو الوليد :

— لا أظنّ أن أحداً من المشتغلين بالفلسفة ، المتفرّخين
لها ، لديه غزارة في المعرفة ، مثلما لديك .
وباسط السلطان أبا الوليد ، فتكلّم بما يعرفه وأفاض ،
وسرّ السلطان بما سمعه منه ، فسأله :

— كم عمرك الآن ؟

فقال أبو الوليد :

— تسع وعشرون سنة .

فالتفت السلطان إلى ابن طفيل ، وقال له :

— إذا صدق حدسي ، فلسوف يكون أبو الوليد ، رابع

فلاسفة المسلمين العظام ، بعد : الكندي ، والفارابي ، وابن
سينا ، ومن حظّ المغرب والأندلس ، أن يكون فيها عقل
منظم ، ونفّاذ لجوهر الأمور ، مثل عقل أبي الوليد .

وأطرق أبو الوليد خجلاً من الثناء عليه ، وعاد السلطان
يقول لأبي الوليد :

— من الآن . سيكون لقبك عندي هو : ابن رُشد .

وضحك ، وأضاف :

— ابن رُشد الجدّ القاضي الفقيه ، وابن رُشد الأب
القاضي الفقيه ، وابن رُشد الحفيد الفيلسوف الطيّب .

قضية عمر

مكث ابن رُشد الحفيد في مراکش ، بضعة أسابيع ، ضيفاً
مكرّماً على السلطان ، يتودّد إليه الوزراء ، ويقدره العلماء ،
ويخشى براهينه الفقهاء المتزمتون .

وزاره أستاذة « ابن طفيل » ، ذات ليلة ، في جناحه بقصر
السُّلطان ، قُبِلَ رَحِيلَه ، وقال له :

— إنَّ السُّلطان يشكو من قلق عبارات المترجمين لمؤلفات
فلاسفة الإغريق ، وغموض شروحها . وهو يأمل أن يقرب
أحد فهمها له وللناس ، بعبارات واضحة ، وتراكيب
مبسطة ، وظنى أنك أقدر منى على تحقيق هذه الغاية ، فأنت
جيد الذهن ، صافى القرينة ، واضح العبارة ، نزوعك قوى
للفلسفة . وانشغالى الدائم بصحبة السلطان ، يجول بيني وبين
هذه الغاية الجليلة .

وقبل ابن رشد الحفيد المهمة ، فقد كان عازما على
معايشة الفلسفة الإغريقية والإسلامية من جديد ، بعقله هو ،
عارضاً لها ، ومعلقاً عليها لشارحا لها ، وبالبراهين اليقينية ،
وليس بالبراهين الجدلية مثل علماء الكلام ، ولا بالبراهين
الخطائية ، مثل الفقهاء والوعاظ ، والكتاب والشعراء .

وقبل عودة ابن رشد إلى قرطبة الحبيبة ، ودَّعه السلطان
وابن طفيل في الصباح . وزوده السلطان أبو يعقوب بمال ،



ومنحه خلعاً (ثياباً) سُلطانيَّة ، وجوَّاداً عربياً أصيلاً من
جِياد « حضر موت » وأجرى عليه راتباً سنوياً لا ينقطع .
وصحبه الفرسان من مراکش إلى شاطئ البحر ، فركب
سفينةً تعبر به مضيق طارق مع جواده ، إلى مرسى السفن
بالجزيرة الخضراء ، في جنوبى الأندلس .

الزلال

خلال خمس عشرة سنة ، أنجز ابن رشد عروضة لكتب
فلاسفة اليونان والاسكندرية ، وتعليقاته عليها ، بل وكتب
أطبائهم وعلماء الفلك والحيوان ، في جوامع عُرفت باسم
جوامع أرسطو ، وأفلاطون ، وجالينوس .. وأهداها واحداً
واحداً في كتب ورسائل للسلطان أبي يعقوب .

وكان ابن رشد قد بلغ من العمر ثلاثاً وأربعين سنة ، حين
ودّع أبوه الدنيا ، قائلاً له ، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة .

— حان الوقت لتكون قاضياً ياباً الوليد ، وحان الوقت
لتؤلف كتبك أنت ، وتحرر نفسك من أسر قدماء الفلاسفة
اليونانيين والمشرقيين . بارك الله فيك يا بني لأهلك ، وأمتك .

في تلك الليلة ، انقطع أبو الوليد عن الدرس والتأليف ،
وكانت هذه الليلة هي الليلة الثانية في حياته التي ينقطع فيها
عن القراءة والكتابة ، بعد ليلة زفافه . إلى زوجته الرقيقة
الحبيبة .

وأوعز « ابن طفيل » للسلطان أبي يعقوب ، فعين ابن
رشد قاضياً لأشبيلية ، قبل أن يمر عام على وفاة أبيه . وغادر
ابن رشد مع زوجته وبنيه الخمسة قرطبة إلى أشبيلية . ولم
يكذ يستقر به وبأهله المقام في أشبيلية ، حتى حدث زلزال
كبير بقرطبة ، كتبت له ولأهله النجاة من أضراره ، وآثاره
الدمرة .

مدينة الفنون

طابت الحياة لابن رشد في اشبيلية ، على حنينه الدائم
لقرطبة ، أم المدائن (عاصمة الدنيا في رأيه . ووعى أن لكل
مدينة طابعها الخاص ، وروحها الخلاق المتميز ، المتجسد في
عمرانها وأهلها . فبقدر ما كانت قرطبة مدينة للفلسفة
والعلوم ، وللكتب والثقافة ، كانت اشبيلية مدينة للمسرات
الروحية الأخرى ، مدينة للفن وللفنانين ، للأزياء
والزخارف ، والموسيقى والغناء ، حتى أن أهل الأندلس كانوا
يقولون : « إذا مات عالم باشبيلية بيعت كتبه في قرطبة .

وإذا مات مُغنٌ بقرطبة بيعت آلاته الموسيقية في اشبيلية « ،
 ضماناً لحسن التقدير لها ، والعدل في ثمنها ، هنا أو هناك .
 وظل ابن رشد يتنقل في فترة إقامته باشبيلية ، بينها وبين
 مراکش ، يواصل عمله الفلسفي ليل نهار ، حتى أتم إنجاز
 مشروعه الفلسفي الهائل ، وختمه بكتاب في الفقه ، هو :
 « المقدمات » ومع ذلك ، بدأ غير راضٍ عن نفسه ، أمام
 نفسه ، بعد كل ما كتبه من كتب ، فقد كان يُبحر في بحر
 أبحر فيها غيره من قبله ، على حدة تعليقاته ، وحسن حسمه
 للآراء الخلافية ، بالعقل الباحث عن وجه الحق وحده .

لقاء مع الشباب

ووفد عليه في اشبيلية عددٌ من شباب قرطبة ، يستنبرون
 بآرائه في قضايا الفكر الفلسفي والديني ، والعلمي . وجلس
 وإياهم في حديقة بيت القاضي باشبيلية ، في ليلة ربيعية
 مقمرة ؛ تتأرجح حولهم في الأشجار ، مع النسائم ، القناديل

والمشكاوات ، وتفوح روائح زهور اشبيلية عطرة ، تُسكر
 الرؤوس ، وتريح النفوس ، وثمة أنغام لموشح أندلسي يُسمع
 من بعيد . وأخذ الشباب يسألون ابن رشد ، ويكتبون في
 الوقت نفسه أسئلتهم ، وأجوبة ابن رشد .

وران عليهم الصمت ، وراحوا يفكرون فيما يسمعون من
 « ابن رشد » ويذكرونه أنهم أمام عقل كبير . لا يقل تسامح
 قلبه ورحابته ، عن سعة عقله . يحتضن بفكره وحدة كبرى
 تندرج فيها كل عقول البشر ، ومعارف الأمم ، وثقافات
 الشعوب .

توحيد القوانين

كان ابن رشد الحفيد قل بلغ من العمر ثلاثاً وخمسين
 سنة ، حين أصدر السلطان أمره بتعيينه قاضياً للجماعة ، فعاد
 ابن رشد بأهله إلى دار آل رشد بقرطبة ، ففتحت أبوابها
 ونوافذها ، وأصلح ماتصدع منها في الزلزال الكبير ،
 وشذبت حديقتها ، وأجريت مياهها ، وأضيئت الأنوار .

وتوجه ابن رشد إلى دار الحكم (القضاء) في قرطبة ،
 بالقرب من مسجدِها الجامع الكبير . وجلس يرقبه قضاة
 محبُّون له ، وقضاة كانوا يطمعون في منصبه ، بعد وفاة قاضى
 القضاة الأسبق « ابن مغيث » ، وقضاة حاسدون له لحظوته
 عند السلطان ، وقضاة ناقدون عليه لصلته بالفلسفة ، ولحبه
 لكل الناس ، وتسامحه ، مثل جده ، مع غير المسلمين .
 وقال ابن رشد ، فيما قاله ، بإيجاز ، مُستتاً (مشرعاً)
 خطة جديدة للقضاء :

— غايَتنا معاً كقضاة ، هي تحقيق العدل ، دون تفریق
 بين أهل الأديان ، أو بين أهل الغنى وأهل الفقر ، وأهل القوة
 وأهل الضعف . وسنبداً بتوحيد القوانين في الحكم بين
 الناس ، فلا يَخْتَلِفُ القضاء في أحكامهم ، من مدينة إلى
 مدينة ، ولا من حى إلى حى .

وأحبُّ الناس في الأندلس « ابن رشد » لعدله ، حبهم
 لجده ، ولأبيه من قبله ، وشعروا بهذا العدل لدى كل قضاة
 الأندلس في الأحياء والمدن ، والضواحي والقرى ، والجبال

والوديان . وهاب القضاة والقضاء ، الأمراء ، والقواد ،
 والأعيان والأغنياء .

ووجد ابن رشد وقتاً ليواصل عمله الفكرى . فعمله في
 القضاء مقصورٌ على الأقضية التى تُحال إليه من قضاة المدن
 والقرى والأحياء ، والأقضية التى يتظلم فيها الرعايا من ذوى
 السلطان ، والأقضية التى يعترض فيها المتخاصمون على
 أحكام هؤلاء القضاة ، وكانت له ولقضاة شرطتهم الخاصة
 لتنفيذ الأحكام دون إبطاء .

احذر لنفسك

وفوجئ ابن رشد بالسلطان يُضيف إلى منصبه منصباً
 آخر ، هو منصب الطبيب الأول الخاص بالسلطان . وخفف
 عنه مسئوليات هذا المنصب ، أنه سيبقى في قرطبة الحبيبة ،
 لا يُغادرها إلى مراكش ، إلا بدعوة من السلطان ، لعلاج
 أو علاج أحد من أهل قصره . وشعر ابن رشد بالامتنان

لأستاذِه « ابن طفيل » الذي يذكرُه أبداً بالخير عند السلطان .
 ومَرَّ عامان ، ودُعِيَ ابنُ رشدٍ لعلاجِ أستاذِه ابنِ طفيل .
 وقالَ له ابنُ طفيل حين رآه :
 — مرحباً بأعزِّ الناسِ . ما أحببتُ بدعوتِكَ ، إلا رؤيتَكَ ،
 فالمرضُ عُضالٌ ، لا علاجَ له إلا براحةَ الأبد .
 وقالَ له ابنُ طفيل :

— احذرْ لنفسِكَ يا أبا الوليد . أعرفُ أنك لستَ لذوي
 السلطانِ بنديم ، ولا بسميرٍ ، وأنك ترفعُ الكلفةَ في
 مخاطبتهم ، وتخطبهم كإخوةٍ وأنداد . وفي ذلك خطر .
 وأعرفُ أنك صاحبُ عقلٍ ، يغارُ منه قضاةٌ وفقهاء ،
 ولا يرضى عن طلبه للحق ، والحقُّ وحده قضاةٌ وفقهاء . وفي
 ذلك خطرٌ أيضاً . ولذلك أحببتُ أن أراك لتسمع مني ماقلته
 لك .

وفي الصِّباح ، ودَّع ابنُ طفيل ، وحيداً ، أنوارَ الدنيا ،
 وظلامها ، وأشياءها ، ووجوهَ الأحابِ والأعداء . وحزنَ
 ابنُ رشدٍ مع السلطان لفراق ابنِ طفيل . وزادتِ الأحزانُ



على ابن طفيل في مرض السلطان ، فبقى ابن رشد بجانبه
شهوراً يُداويه ، ولا يفلح فيه علاج ، حتى فارق الدنيا ،
ودُفِنَ بجانب صديقه « ابن طفيل » ، كما أراد . وباع ابن
رشد ، مع الناس ، السلطان الجديد : « أبو يوسف
يعقوب » ، وودّعه هو وأخاه « يحيى أبا يعقوب » ، عائداً
لمنصبه في قرطبة ، كقاض للقضاة .

الكليات والجزئيات

زار « ابن زهر » صديقه ابن رشد عالم الطب في بيته ،
وكان ابن زهر قد أصبح أشهر طبيبٍ معالجٍ في الأندلس
بأسرها . واتفق الصديقان الطبيبان ، على تصنيف كتابين
خطيرين في الطب . هما : « الكليات » ، وحمل مسؤولية
تأليفه ابن رشد ، و« الجزئيات » وحمل مسؤولية تأليفه ابن
زهر . واستغرق هذا الجهد من الصديقين بضعة أعوام .
وحين التقيا في حديقة قصر ابن رشد ، كان مع كل منهما
كتابه الضخم في الطب . وبدا أحدهما للآخر سعيداً بما أنجزه



صاحبه . لكن ابن رشد سرعان ما شرّد مع خواطره ، حتى
سمعه ابن زهر ، يقول :
— وماذا بعد ؟

فسأله ابن زهر عن مقصده . فقال له ابن رشد ، وهو
يتنهد :

— إنما كنت أحدث نفسي . ويبدو لي أنني مُقبل على
أمرٍ عظيم ، لا فرار لي منه ، وربما لائجاة .

وعبثاً حاول ابنُ زُهر أن يحملَ صاحِبَه ، على البَوح بما يفكرُ فيه من الأمر العظيم ، فقد كان ابنُ رشد يخشى أن يُثبِّطَ أحدُ همَّته ، وقد بلغ الثانية والستين من عمره ، ويعرفُ أن الموتَ بالسَّيف ، والموتَ على الفراش ، يستويان في نهاية الأمر . وأنَّه من الخير له وللدنيا ، أن يُقدِّم على ما عزم عليه بشجاعة ، ويحتسبَ مصيرَه عند الله ، والتاريخ .

في تلك الليلة ، وإذ غادره ابنُ زُهر ، دخلَ ابنُ رشد مكتبته الخاصة ، وجمعَ من رفوفها المنظمة كتباً عن مسائل الشرع الاجتهادية ، وكتباً عن اختلاف الصحابة والفقهاء ، وكتابين للإمام الغزالي هما : « تهافت الفلاسفة » ، و« فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » . كانت الرغبة جارفةً في عقل ابنِ رُشد وروحه ، للحِوَارِ مع الفقهاء عامة ، والغزالي خاصة ، وهو يعلم أن الغزالي أشعري المذهب ، خطابي البراهين حيناً ، جدليها حيناً آخر ، باطنى في طلب المعرفة ، وأنَّه صارَ مقدساً لدى العامة ، والمتزمتين من الفقهاء ، ممن يؤثرون راحةَ العقل ، بل وربما الجهل والتسليم بما يُقال ، كلُّ ما يُقال .

بداية المحنة

ومنذُ تلك الليلة ، ولسنواتٍ عشرٍ تاليةٍ من عمره ، قلت زياراتُ ابنِ رُشد لأصحابه ، وزياراتُ أصحابه له ، بعد ساعاتِ عمله في دار الحُكم ، متعللاً بشتى الأسباب ، قابلاً في مكتبته مع المراجع والكتب ، والأقلام والأوراق ، في ضوءِ النهار عبرَ نوافذِ الزَّجاج ، وفي ضوءِ المشكاوات في ظلام الليل . وإذ شعرَ أنه قد أنجزَ مهمته ، وتوجَّعَ عمره بخوضِ معركة الفكرية في جبهتين : جبهة الفلسفة من جهة ، وجبهة الفقه الدِّيني من جهةٍ أخرى ، سارعَ بزيارةِ الأوراقِ الناشرة لكتبه .

ووضعَ ابنُ رُشد بين يديه أربعةَ كُتبٍ دفعةً واحدة ، أولها هو « تهافت التهافت » ، وهو في الفلسفة ، والأخرى هي : « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » ، وهو في تفسيرِ نصوص قرآنية ، و« فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة (الفلسفة) من الاتصال » ، وهو في علم الكلام ، و« بداية المجتهد ونهاية المقتصد » وهو في الفقه الإسلامي .

ونسَخَ النساخون كُتُبَ ابنِ رُشد ، وأقبلَ على قراءتها
طُلابُ العِلْمِ في أرجاءِ المَدائِنِ الأندلسية . وأحدثت هذه
الكتبُ غيظاً مكتوماً في نفوسِ المتزمِتين بالأندلس والمغرب ،
وباتَ خصومُ ابنِ رُشد من الفُقهَاء يتحينون الفُرصَ للإيقاع
به عندَ السُّلطان ، وباتَ القضاةُ الحاسِدُونَ له ، والقضاةُ
الطامِعُونَ في منصبه ، يَرصُدون الوقتَ المناسبَ لإعلانِ
الحربِ عليه . وكانتِ الفِتنةُ غافيةً تحتَ الرماد ، تنتظرُ هبةً
ريح .

زيارة عابرة

ووفدَ السُّلطان « أبو يوسف يعقوب » إلى قرطبة ، إثر
انتصاره على جيوشِ ألفونسو التاسع في الشمال . وقد ترددت
الإشاعاتُ في قرطبة ، عن غضبِ السُّلطان على ابنِ رُشد ،
لأنه يرفعُ الكلفةَ بينه وبينه مخاطباً إياه بقوله : « يا أخى » ،
ولأنه يتآمرُ مع أخيه « يحيى » ، ولم يكنْ ذلكَ صحيحاً ،
على السُّلطانِ لعزله ، وتوليةِ أخيه .

وبلغتِ الإشاعاتُ سَمْعَ السُّلطان ، لكنه لم يبالِ بها ، فقد
قرأ كُتُبَ ابنِ رُشد ، ولم يغضبه ماكتبه ابنُ رُشد ، فهو لم
يمسَّ شرعاً ، ولانصاً ، وإنما حاورَ اجتهاداتٍ ، وآراءٍ . وهو
على ثقةٍ من أخيه ، وعلى يقينٍ من أن ابنَ رُشد لا يلعبُ لعبةَ
السياسة . وفشلَ خصومُ ابنِ رُشد فيما أرادوه . لكنَّ
السُّلطانَ كانَ ، في داخله ، غيرَ راضٍ عن جرأةِ ابنِ رُشد ،
لاستشارته للعامة ، والفُقهَاء .

خيانة تلميذ

كان ابنُ رُشد جالساً وحده ، وقد تباعدَ عنه ، خوفاً من
خصومه ، أصدقاءٍ له وطُلاب ، وبينهم كان تلميذٌ له ، عاونه
في تعيينه كاتباً بدارِ الحُكم ، ثم قاضياً بينَ القضاةِ ، هو :
« أبو محمد عبد الكبير » ، الذى تزعمُ جبهةُ خصومِ ابنِ
رُشد . وفوجئَ ابنُ رُشد بقدومِ صديقه « ابنِ زهر » عليه ،
وجلسه إليه ، مُثنياً على ماكتبه ، مهتماً له بالنجاة من حملةِ
الإشاعات . وقال له ابنُ رُشد :

— مامرّ جولة ، والجولة التالية ، لا يعلم أحد سوى الله متى تكون ؟ أو كيف تنتهى ؟ لكننى لست بأسف على شيء ، فما أردت إلا قول الحق ، لوجه الحق ، ومصلحة الأمة .

محاكمة ابن رشد

وعاد السلطان أبو يوسف إلى قرطبة مرة أخرى بعد عامين ، ليعدّ العدة ، ويجهّش الجيوش لمعركة فاصلة ، مع ألفونسو التاسع ، في موقعة « الأرك » . وانتهر الفقهاء فرصة حاجة السلطان إليهم للدعوة للجهاد ، وحثّ الناس على الخروج للقتال ، والتبرّع بالأموال ، فجعلوا بينهم وبين أنفسهم ثمناً لذلك : « رأس ابن رشد » . ودبر لهم الخطة ، في تمثيلية محكمة ، أمام السلطان : « أبو محمد عبد الكبير » ، ولم تكن من مشاهدتها وفصولها ، كتب ابن رشد الأربعة الأخيرة .

قدّموا له ، وابن رشد في المجلس حاضر ، ورقة من كتابه

« الحيوان » ، زعموا أنها بخطّه ، مكتوب فيها عن السلطان ، أنه « ملك البربر » وقد شهد عليها مائة شاهد . وأكد ابن رشد أنها ليست بخطّه ، وقدم هو ورقة أخرى بخطّه ، من كتابه هذا ، مذكور فيها : « ملك البربر » .

وقالوا عنه إنه قال في كتابه « الكليات » : « من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله » . فلم ينكر ابن رشد ما قالوه ، وأكد ما كتبه ودافع عنه ، فمعرفة تكوين الكائنات يزيد الإيمان ويثبتّه .

وقالوا عنه إنه كتب في أحد كتبه ، أن « الزهرة إحدى الآلهة » ، فقال ابن رشد : هكذا كان يعتقد الأولون ، وأنه لا يعتقد ذلك ، وإنما حكى معتقدات السابقين .

ورأى السلطان التمثيلية مضحكة الاتهامات ، وأدرك أنه بحاجة للجميع في مواجهته للفرجة في « الأرك » ، فالحنة ليست محنة ابن رشد وحده ، وإنما هي أيضاً محنة للسلطان ، في موقف عصيب .

ورفع السلطان الجلسة ، ليصدر حكمه بعد حين . وتوقع

الفُقهَاءُ الإِطَاخَةَ بِرَأْسِ ابْنِ رَشْدٍ ، عَلَى ضَعْفِ اتِّهَامَاتِهِمْ ،
وَذَهَبَ « ابْنُ رَشْدٍ » وَهُوَ يَنْتَظِرُ الْحُكْمَ ، لِلصَّلَاةِ مَعَ وَلَدِهِ
فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ ، وَتَوَضَّأَ ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ ، وَالْمَاءُ يَقْطُرُ
مِنْ وَجْهِهِ ، وَسَاعِدَيْهِ ، وَسَاقِيهِ . فَفُوجِيَءٌ بِالرَّعَاغِ ، مِنْ
صَبِيَّةٍ الْمُتَزَمِّتِينَ ، يَطَارِدُونَهُمَا بِالنُّعَالِ ، مُتَهِمِينَ إِيَاهُمَا بِالنَّفَاقِ
وَالزُّنْدَقَةِ ، وَيَطْرِدُونَهُمَا مِنَ الْمَسْجِدِ .

وَأَدْرَكَ السُّلْطَانُ عِنْدَمَا بَلَغَهُ الْخَبَرُ ، حَرَجَ الْمَوْقِفَ ، وَقَبْلَ
شَفَاعَةِ أَعْيَانِ قُرْطُبَةَ فِي ابْنِ رَشْدٍ ، فَأُصْدِرَ حُكْمُهُ بِنَفْيِهِ ، هُوَ
وَعِدَّةٌ مِنْ أَصْدِقَائِهِ وَتَلَامِيذِهِ ، فِي « الْيَسَانَةِ » وَكَانَتْ مَدِينَةً
صَغِيرَةً ، أَكْثَرُ سُكَّانِهَا مِنَ الْيَهُودِ .

الحق لا يموت

وَشَعَرَ الْفُقَهَاءُ وَالْقَضَاةُ الطَّامِعُونَ ، بِالنَّصْرِ ، وَإِنْ لَمْ يُطَحْ
فِيهِ بِرَأْسِ ابْنِ رَشْدٍ ، وَسَانَدُوا السُّلْطَانَ فِي مَعْرَكَةِ « الْأَرْكِ »
الْفَاصِلَةِ ، هُزِمَتْ فِيهَا جِيُوشُ « الْفُونَسُو » هَزِيمَةً سَاحِقَةً



وَحَرَّكَ خَصُومُ ابْنِ رَشْدٍ الْوَعَّازَ فِي الْمَسَاجِدِ ضِدَّهُ ،
وَالشُّعْرَاءَ ، وَالْوَشَّاحِينَ ، وَالزَّجَالِينَ ، فَهَجَّجِي فِي أَرْجَاءِ
قُرْطُبَةَ ، وَاتَّهَمَ بِأَنَّهُ يَهُودِي الْأَصْلَ ، وَمَخْرُوفُ الْعَقْلِ ، وَتَنَاوَلَهُ
الْأَدَبُ الشَّعْبِيُّ الْأَنْدَلُسِيُّ بِقَارِصِ الْكَلَامِ . وَكَانَ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ
الَّذِينَ هَجَّوْهُ الرَّحَّالَةَ : « ابْنُ جُبَيْر » وَجَمَعَ الْفُقَهَاءُ
مَا اسْتَطَاعُوا جَمْعَهُ مِنْ كُتُبِ ابْنِ رَشْدٍ ، وَأَحْرَقُوهَا فِي مِيَادِينَ
قُرْطُبَةَ وَاشْبِيلِيَّةَ ، وَقَالَ ابْنُ رَشْدٍ لَمَنْ مَعَهُ حِينَ بَلَغَهُ الْخَبَرُ :
— الْآنَ أُدْرِكُ أَنَّنِي انْتَصَرْتُ لِلْحَقِّ ، وَالْحَقُّ لَا يَمُوتُ .

السلطان يعتذر

كَانَتْ قَدْ مَضَتْ عَلَى ابْنِ رَشْدٍ فِي « أَلَيْسَانِهِ » ثَلَاثُ
سِنَوَاتٍ ، وَكَانَتْ الْعَاصِفَةُ قَدْ هَدَأَتْ ، وَآنَ لِلسُّلْطَانِ أَنْ
يَقْلِبَ الصَّفْحَةَ الْآخِرَةَ فِي مِحْنَةِ ابْنِ رَشْدٍ ، فَسَعَى بِنَفْسِهِ إِلَى
« أَلَيْسَانِهِ » وَصَحْبَهُ مَعَهُ إِلَى مَرَّاكَشَ ، حَتَّى لَا يَبْقَى فِي
الْأَنْدَلُسِ بِأَسْرِهَا ، وَاعْتَذَرَ لَهُ ، وَأَعَادَ إِلَيْهِ مَنْصِبَهُ السَّابِقِينَ .
وَرَضِيَ ابْنُ رَشْدٍ ، وَعَدَّ مَا حَدَّثَ لَهُ أَخْفَ مَا حَدَّثَهُ

نَفْسُهُ بِهِ فِي مِحْنَتِهِ . وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ
سَنَةً ، وَقَدْ اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ أَوْجَاعُ الْمَفَاصِلِ ، مِنْ أَثَرِ حُمَّى كَانَ
قَدْ أُصِيبَ بِهَا فِي صِبَاةٍ ، وَلَمْ يَعَالَجْ مِنْهَا عِلَاجًا كَافِيًا .
وَلَمْ تَمُضْ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ شُهُورٍ فِي مَرَّاكَشَ ، حَتَّى لَفِظَ أَنْفَاسَهُ
مُودِّعًا النَّاسَ جَمِيعًا ، لِيَلْقَى وَجْهَ رَبِّهِ .

وَسَارَ فِي تَشْيِيعِ جَنَازَتِهِ السُّلْطَانُ ، وَعَدَدُ قَلِيلٍ مِنْ
الْأَصْدِقَاءِ ، وَ« مَحْيَى الدِّينِ بْنِ عَرَبِي » ، وَكَأَنَّمَا كَانَ السُّلْطَانُ
عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ أَجَلِهِ ، بَعْدَ ابْنِ رَشْدٍ ، مِثْلَمَا كَانَ أَبُوهُ عَلَى
مَوْعِدٍ مَعَ رَبِّهِ ، بَعْدَ ابْنِ طُفَيْلٍ ، فَقَدْ لَفِظَ أَنْفَاسَهُ بَعْدَ شَهْرِ
وَاحِدٍ مِنْ وَفَاتِهِ .

وَسَارَعَ الْأَصْدِقَاءُ وَالتَّلَامِيذُ بِنَقْلِ رَفَاتِ ابْنِ رَشْدٍ مِنْ
مَرَّاكَشَ ، عَلَى ظَهْرِ بَغْلٍ ، لِيُدْفَنَ لَيْلًا مَعَ جَدِّهِ وَأَبِيهِ ، فِي ثَرَى
قُرْطُبَةَ ، الْمَدِينَةِ الَّتِي أَحَبَّهَا ، وَكَانَ عَقْلُهَا الْمَفَكَّرَ ، وَقَاضِيَهَا
الْعَادِلَ ، وَعَاشِقَهَا الْأَبَدِي .

وَأَحْصَى الْأَصْدِقَاءُ وَالتَّلَامِيذُ عِدَدَ الصَّفْحَاتِ الَّتِي كَتَبَهَا ،
فَكَانَتْ عَشْرَةَ آلَافٍ وَرَقَةً ، وَعَدَدَ الْكُتُبِ وَالرِّسَائِلِ الَّتِي
ضَمَّتْهَا فَكَانَتْ ثَمَانِيَةً وَخَمْسِينَ كِتَابًا .

ولعدة قرون ، أحدثت مؤلفات ابن رشد دويًا في أرجاء أوربا ، وعقول مفكرى الأديان الثلاثة : « ابن ميمون » حبر اليهود ، و « ثوما الأكويني » المفكر المسيحي ، و « مارتن لوثر » داعية البروتستانت ، وابن تيمية الإمام ، وخوجة زاده المؤرخ التركى ، وآباء الكنيسة فى إيطاليا الذين هاجموا الفكر الرشدى فى مائتين وتسع عشرة قضية ، أصدرُوا بها قراراً بالإعدام ، على كل من يقرأ ابن رشد ، أو يكتب عنه . وأعدم بسبب هذا القرار الأحمق ، صفوة من المفكرين الإيطاليين فى روما .

لكن الحق الذى لا يموت انتصر فى النهاية بعد ثلاثة قرون ، فتخصّص فى فكره مستشرقون فى ألمانيا ، والنمسا ، وفرنسا ، وهولندا ، وإيطاليا ، وفلورنسه ، وانجلترا ، وأمريكا ، وتركيا ، وعواصم الوطن العربى .

وجاءت أجمل تحية لابن رشد ، بطبع أعماله فى البندقية فى القرن السادس عشر الميلادى ، فى اثنى عشر مجلداً ، وتدرّس كتبه فى جامعات إيطاليا ، وفرنسا . وقد كتب العقادُ عنه كتاباً ، ومحمودُ قاسم كتاباً آخر نال عنه درجة

الدكتوراة من باريس ، وحقق وطبع عدداً من كتبه نشرتها هيئة الكتاب بالقاهرة .

وفى العصر الحديث ، لا يزال الاهتمام بالفكر الرشدى ، المؤثر فى الفلسفة الإسلامية ، والأوربية على السواء ، قائماً ، فما أكثر العواصم التى تتكوّن فيها ، فى القرن العشرين « الجمعيات الرشدية » من أساتذة الجامعات ، والأكاديميات العالمية ، فى عدد من عواصم الدنيا .

* * *

وفى العام الثامن والتسعين ، وفى اليوم العاشر من ديسمبر من هذا القرن العشرين ، ستحل الذكرى الثمانمئة لوفاة ابن رشد . ولسوف يحتفل العالم كله بهذه الذكرى ، وتنصت الدنيا لكلماته القائلة :

« على الإنسان أن يعمل لإسعاد المجموع ، فلا يخص شخصه بالخير والبر . على المرأة أن تقوم بخدمة المجتمع كما يقوم الرجل . المصلحة العامة هى مقياس الأفعال من حيث الخير والشر . الدين أحكام شرعية وغايات خلقية ، وليس مذاهب نظرية . المجتمع الأمثل هو المجتمع الذى لاتفرقة فيه

بين : « مالي .. ومالك » ، ولا غربة فيه لأحد في أي بلد ،
وتتحقق فيه الحريات في النظام . الطاغية أسير فئة من الناس
يملؤهم الجوع والخوف ، وهو نفسه يعاني أعظم الجوع ،
فليس بمستطاعه أن يذهب حيث شاء ، ولا أن ينظر حيث
يريد ، ولا يستطيع أن يضبط نفسه فيغلبها . وهو أشد الناس
عبودية ، ولا حيلة له لكبح جحاح رغباته ، فهو في حزن
وهم دائمين . إنه نفس فقيرة ، حسود وعنيف ، ولا صديق
له . ولا شك عندي في أنه بالضرورة مضطرب وتعييس
الحظ » .

* * *

في عام خمسمائة وعشرين هجرية ، ألف ومائة وستة
وعشرين ميلادية ، كان ميلاد ابن رشد الحفيد ، الفيلسوف
الطبيب .

وفي عام خمسمائة وخمسة وتسعين هجرية ، ألف ومائة
وثمانية وتسعين ميلادية ، كان وداعه للدنيا .

رقم الايداع بدار الكتب

٨٩ / ٤٧١٩

طابع الاشراف التجارية - قلايوس - مصر

ابن رشد

آخر الفلاسفة العرب وأعظمهم أثراً . عاش بالأندلس في القرن الثاني عشر
الميلادي فقيهاً ، وفيلسوفاً ، وقاضٍ قضاءً وطبيباً للسلطان ، يدعو للعقل والمدنية
والمساواة بين الرجال والنساء ، ويتوفق بين الدين والعلم ، وبين الدين والفلسفة
ويعرض وينقد أفكار الفلاسفة المشرقية والمغربية ، ويطورها ، ويهز بفكره

وكتبه الدنيا بأسرها ، وتثير أفكاره
موجات من الرضا والغضب في أوروبا
طوال عدة قرون ، فلم يخف أبداً أعداءه
لأستبداد الطغاة والفقهاء . إنها قصة
ثير الفخار . يقرأها الصغار والكبار .

صدر من هذه السلسلة

- | | |
|------------------|---------------|
| ١ - ابن النفيس | ٧ - ابن سينا |
| ٢ - ابن الهيثم | ٨ - الفارابي |
| ٣ - البيروني | ٩ - الخوارزمي |
| ٤ - جابر بن حيان | ١٠ - الإدريسي |
| ٥ - ابن البيطار | ١١ - الهميري |
| ٦ - ابن بطوطة | ١٢ - ابن رشد |

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع في الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش. الجلاء - القاهرة

طابع الأهرام التجارية - قاير - مصر